وفلسفة ابن طفيل

بقلم الاب توتل اليسوعي

٢

الفلكي

ابن طفيل القريض ، وكتب في علم الفلك . ولكن لم يصلنا من شعره الا النذر القليل ، روينا شيئاً [1] منه عن المراكشي ؛ ولم يُعرف في عالم الادب كشاعر ؛ انما كانت مطالعة الاشعار وحفظها ونظمها في برنامج التعليم ، فلم يهملها . اما علم الفلك ، فله فيه مقالة ، على قول ابن رشد . وقال ابو اسحق البتروجي الفلكي في مقدمة كتابه في الفلك ، وهو الذي اراد ان يستبدل به نظريات بطليموس : « تعلم يا اخي ان استاذنا القاضي ابا بكر بن طفيل قال انه وقف لنظام فلكي لتلك الحركات ، كان يتبعه ، غير النظام الذي اتبعه بطليموس ، وانه في غنى عن الدوائر الداخلة والخارجة ، وان نظامه يخفف حركات الاجرام بدون وقوع في الخطأ . ووعدنا بالتأليف في هذا الباب ، فلا عجب ، فان علمه غني عن الاطناب »

وان النظام الذي اتبعه بطليموس في تفسير حركات الاجرام السماوية يقول بان الكرة الارضية لا تدور ولا تتحرك بل هي ساكنة في مركز الفلك ، والكواكب والنجوم تدور حولها . ونقد كوبرنيك وغاليليو ذلك المذهب بتعليلهما ان الارض تدور حول الشمس ، واتخذ العلماء الفلكيون من ثم كلامهما حجة

---

(١) راجع الجزء الماضي من المشرق ص ٤٦

ومبدأ في تدوينهم قواعد علم الهيئة .

واراد البعض ان يفاخروا بابن طفيل سابقاً لكوبرنيك وغاليليو بتضيده نظام بطليموس المذكور . فعارضهم لاون غوتيه قائلاً ان ابن طفيل لم يفكر قط بنظام كوبرنيك وغاليليو ، وأن علمه لم يرقَ على علم الفلكيين في زمانه . واما هؤلاء اجمعون ، فلم يروا غير الرأي القديم في حركة الفلك ، فلاموا بطليموس على مخالفته بعض المخالفة ذلك التعليم ، الذي خلاصته : « الافلاك هي اجسام كريات مشفات مجوفات ، وهي تسعة افلاك مركبة بعضها في جوف بعض ، كحلقة البصل ، فادناها الينا فلك القمر ، وهو محيط بالهواء من جميع الجهات كاحاطة قشرة البيضة ببياضها ، والارض في جوف الهواء كالمُحّ في بياضها ، ومن وراء فلك القمر فلك عطارد ، فالزهرة ، فالشمس ، فالمريخ ، فالمشتري ، فزحل . ومن وراء فلك زحل فلك الكواكب الثابتة ، ومن وراء فلك الكواكب الثابتة الفلك المحيط . والفلك المحيط بجميع ما يحوي من الافلاك والكواكب يدور حول الارض »[1]

ولكن غوتيه لم ينصف في حكمه على الاقدمين بجهلهم ، اجمعين ، حركة الارض حول الشمس . وفي كتاب مواقف عضد الدين ، الجلد الثاني ص٤٤٥ ، شهادة واضحة بينة على ان بعض العلماء الاقدمين قالوا بحركة الارض : « وقيل انها تدور على نفسها من المغرب الى المشرق ... » اما رأي ابن طفيل في ذلك فقد يتاح الوقوف عليه بما كتبه عن حيّ بن يقظان (ص ٦٣) : « وما زال حي يتصفح حركة القمر الآخذة من المغرب الى المشرق وحركات الكواكب السيارة كذلك حتى تبين له قدر كبير من علم الهيئة ، وظهر ان حركاتها لا تكون الا بافلاك كثيرة كلها مطمئنة في فلك واحد ، اعلاها ، وهو الذي يحرك الكل من المشرق الى المغرب في اليوم والليلة . » ولا داعي كاف يدعونا الى القول ان ابن طفيل غير رأيه في ذلك . والنتيجة من هذا الكلام ان ابن طفيل لم يرتإ غير رأي الاقدمين بحركة الفلك . على ان ما بلغنا من اقواله عن الشمس

---

١) راجع رسائل اخوان الصفاء المجلد الاول ، ص ٥٦ ؛ والمجلد الرابع ، ص ٣٨١ .

وشكلها ونورها وتأثيرها في نشأة الحياة ، وان يكن قد جاء على سبيل العرض والايجاز في قصة حي ، ففيه من وضوح العبارة ودقة الوصف ما يستطاب مذاقه ، تعويضاً عما لم يبلغ الينا من مؤلفاته المطولة [1] .

« قد ثبت في علوم التعليم ، بالبراهين القطعية ، ان الشمس كرية الشكل ، وان الارض كذلك ؛ وان الشمس اعظم من الارض كثيراً ، وان الذي يستضيء من الارض بالشمس ، ابداً هو اعظم من نصفها ؛ وان هذا النصف المضيء من الارض ، في كل وقت ، اشد ما يكون الضوء ، في وسطه ؛ لانه ابعد المواضع من الظلمة ، وانه يقابل من الشمس اجزاء اكثر . وما قرب من المحيط كان اقل ضياء ، حتى ينتهي الى الظلمة ، عند محيط الدائرة التي هي ما اضاء من الارض . وانما يكون الموضع وسط دائرة الضياء ، اذا كانت الشمس على سمت [2] رؤوس الساكنين فيه ، وحينئذ يكون الحر في ذلك الموضع اشدّ ما يكون . فان كان الموضع مما تبعد الشمس عن مسامتة رؤوس اهله ، كان شديد البرودة جداً ، وان كان مما تدوم المسامتة ، كان شديد الحرارة . وقد تبرهن في علم الهيئة ان بقاع الارض التي على خط الاستواء ، لاتسامت الشمس رؤوس اهلها سوى مرتين في العام ، عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان ، وهي في سائر العام ستة اشهر جنوباً منهم وستة اشهر شمالاً منهم فليس عندهم حر مفرط ولا برد مفرط ، واحوالهم بسبب ذلك متشابهة وهذا القول يحتاج الى بيان اكثر من هذا لا يليق بما نحن بسبيله »

وذكر المؤرخون لابن طفيل كتباً في الطب لم يظهر منها ، الى يومنا ، شيء بالطبع ؛ عسى ان يوفق المنقبون في البحث عنها فيخرجوها من النسيان وينشروها .

الفيلسوف

لم يثبت التاريخ لابن طفيل سوى كتاب واحد ، وهو قصة حي بن يقظان

١) ص ١٨-١٩ من طبعة غوتيه ، فونتانة ، الجزائر ١٩٠٠ ، ومنها سائر ما نقتطفه من قصة حي .

٢) سمت الرأس في علم الهيئة : نقطة من الفلك ينتهي اليها الخط المتارج من مركز الكرة الارضية على استقامة قامة الشخص .

في اسرار الحكمة المشرقية ، فعليها الاعتماد في درس فلسفته . ونحن نتكلم على مآخذ القصة ومغزاها ، وخلاصتها ، ومعانيها ، ونتخطى من ثم الى النظر في مباديها ونقدها .

المآخذ والمغزى

قد ورد ذكر حيّ ، وسلمان ، وابسال ، في المؤلفات الفلسفية واشهرها رسالة حي بن يقظان لابن سينا[1] . هذا ولنصر الدين الطوسي ، وللجامي الشاعر الفارسي مؤلفات في الموضوع ذاته ، وكلها ترمي الى غرض واحد وهو تبيان كيفية كشف العقل الانساني على احوال الكون والوجود وتفسيره . وقيل ان بعض تلك المؤلفات مأخوذة من مجموعة يونانية ، ومعربة بقلم المترجم الشهير حنين بن اسحق . وذكر ابن طفيل في مقدمة الكتاب المؤلفات التي اعتمد عليها ، ومنها اقوال ابن سينا في اسرار الحكمة المشرقية ، واقوال ابي بكر ابن الصائغ في صفة الاتصال والاتحاد بالله تعالى ، وفلسفة ارسطو وابي نصر الفارابي والغزالي . فالنتيجة هي ان ابن طفيل استقى من الينابيع الثلاثة التي تدفقت مياهها في حدائق الآداب العربية وعلومها فانعشتها وهي فلسفة السريان واليونان وفارس ، وسوف تظهر لنا في خلال القصة آثار التأثير الهندي .

وللاسماء حي واسال وسلامان مغزى ، ومعان رمزية في عرفهم . « فحي » هو رمز العقل الصادر من الله ، المقتبس نوره المخلوق من نوره الغير المخلوق . وبذلك المعنى يدعى « ابن يقظان » او ابن الذي لا ينام سبحانه ، وهو الله . وان هذا العقل ظهر في معزل عن البشر ، ونشأ في محيط لم ينله فيه تعليم ولا تأثير ، فلا اب له ولا ام . ولم يتفتح للمعارف الا عفوًا بقوته الشخصية وتأمله بالكون وتجاه ذلك العقل الفعال ، اقام ابن طفيل أسال وسلامان ، والاول يمثل العقل المهتدي بالاجتهاد الى معرفة الحق ، والثاني العقل المكتفي بحرف القرآن والحديث والفرائض والمعادي للفلسفة والتصوف . وغاية ابن طفيل من ابرازه هؤلاء الاشخاص هي ان يخفي تحت « حجابهم اللطيف اسرارًا تنهتك سريعاً

---

١) راجع مخطوطات المكتبة الشرقية ، غرة ٤١٠ ، ١١ ، ١

لمن هو من اهلها ، وتتكاتف لمن لا يستحق تجاوزها حتى لا يتعداها . » فان كثيرين من المفكرين في الاسلام يميلون الى الاعتقاد ان الفلسفة تؤدي الى ابعد ما يؤدي اليه حرف القرآن من معرفة الله . وفي الحقيقة ان الشريعة لا تسنّ واجبات للحياة الباطنية ، بل هي قانون اجتماعي غايته مرماه التوحيد الظاهر بين المسلمين في المذاهب الاربعة،من غير ان يعنى بطقوس ورتب خارجية تُعرب عن الحياة الباطنية وتحكم في الضمائر . فالايمان بالله الاوحد ، كما يدعو اليه حرف القرآن ، يضع الله ، سبحانه وتعالى ، ابعد من ان يمتّ اليه مخلوق بقربى او صداقة.على ان النفوس البشرية ، وان حصرت ضمن حدود الفرائض الخارجية ، فهي توّاقة الى الخير الاسمى وعطشى الى الحياة الروحية والى الدين الباطني . فنظر اتقياء المسلمين حولهم ملتمسين السبيل الى الاتصال بالله عن الطرق الاقرب منالًا اليهم . وتلك الطرق كانت شعباً فمنها المسيحية ، ومنها اليونانية الأسكندرية ، ومنها البوذية . فلبس الاتقياء الصوف تأسياً بالرهبان المسيحيين اللابسين المسح ، وزهدوا واستطابوا التعلم بالكفران بالذات . وذهبوا مذاهب الاسكندريين القائلين بامكان اتصال المخلوق بالخالق بواسطة الرياضة والتمرين . وبلغت نتائج تعاليمهم حيث حطّ البوذيون المنود في آخر محطة كمالهم وفلسفتهم وقالوا : « سبحاني ! ما اعظم شأني ! » فاضمحلت شخصيتهم باللاهوت .

واحدثت تعاليمهم ضجة في الناس واثارت عليهم نقمة الحكام فصاروا هدفاً للاضطهاد . اما ابن طفيل ، فقد نال من حماية السلطان ، كما رأينا ، ومن عرض تعليمه الفلسفي تحت حجاب القصة والرموز ما وقاه شرّ معارضيه .

خلاصة القصة

المقدمة

عرض ابن طفيل في المقدمة موضوع الكتاب : وهو بثّ اسرار الحكمة المشرقية اخذًا عن هؤلاء الفلاسفة المذكورين وقد زاد عليهم بتحصيله الشخصي . ونبّه القارئ في مستهل الكلام الى ان الموضوع عويص ، والكلام عليه

اعوص ، وهو مع ذلك يهيج سار الى غاية لا مزيد عليها. وان اسرار الحكمة المشرقية ، في مراد ابن طفيل ، هي المعارف التي يبلغ بها الانسان الى الاتصال بالله تعالى . وهي « خليقة ان يقال لها احوال الهية يهبها الله لمن يشاء من عباده ». فمن الفلاسفة من ينتهي الى ذلك الاتصال بطريق العلم النظري والبحث الفكري ، ومنهم من يهتدي اليه بطريق الذوق ، لا على سبيل الادراك النظري المستخرج بالمقاييس ، وقال : (ص ٦–٧)

« ان اردت مثالاً يظهر لك به الفرق بين ادراك هذه الطائفة وادراك سواها ، فتخيل من ولد مكفوف البصر ، الا انه جيد الفطرة ، قوي الحدس ، ثابت الحفظ ، مسدد الخاطر . فنشأ منذ كان في بلدة من البلدان ، وما زال يتعرف اشخاص الناس بها ، وكثيراً من انواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة: مسالكها وديارها واسواقها ، بما له من ضروب الادراكات الاخر حتى صار بحيث يمشي في تلك المدينة ، بغير دليل. ويعرف كل من يلقاه باول وهلة. وكان يعرف الالوان وحدها بشروح اسمائها وبعض حدود تدل عليها . ثم انه بعد ان حصل في هذه الرتبة فتح بصره وحدثت له الرؤية فمشى في تلك المدينة كلها وطاف بها فلم يجد امراً على خلاف ما كان يعتقده ولا انكر من امرها شيئاً ، وصادق الالوان على نحو ، صدق عنده الرسوم التي كانت رسمت له بها ، غير انه في ذلك كله حدث له امران عظيمان ، احدهما تابع للآخر ، وهما زيادة الوضوح والابتلاج واللذة العظيمة » .

وقال ابن طفيل : ان طريقة المشاهدة بالذوق اسمى من طريقة النظر . ولا يمكن وصف ما يراه « اصحاب المشاهدة والذوق والحضور في طور الولاية » لان من حاول ذلك وتكلفه بالقول او الكتب استحالت عينه وصار من قبيل القسم الآخر ، صاحب المعرفة بالبرهان والقياس . فمن ظفر بشيء من تلك المعرفة السامية لم يكلم بها الناس الا رمزاً و« الملة الحنيفية والشريعة الحقيقية » الاسلامية منعت من الخوض فيه . وليس ما حاول كتابته الفلاسفة المذكورون موافقاً للحقيقة على الاطلاق. لكن ابن طفيل اتى على هذا الموضوع متتبعاً كلامهم ، موفقاً بينهم ، مفسراً اقوالهم بآراء زمانه. فبلغ الى تلك المعرفة الربانية

السامية اولًا بطريق النظر ، وثانياً بالذوق والمشاهدة.

الاحقاب السبعة

قسم ابن طفيل حياة حيّ بن يقظان الى احقاب ، كل حُقب يستغرق سبع سنين .

اصل الانسان

فالحقب الاول يشمل نشأة الصبي في جزيرة من جزائر الهند ، الواقعة تحت خطّ الاستواء . قيل انه ولد من غير اب ولا ام وبقوة اختمار الفخار تحت اشعة الشمس الحارة المعتدلة . وقيل انه ولد كسائر البشر من اب وام ، وحُمل على موج البحر الى داخل كهف حيث ارضعته ظبية وربّته فنشأ وترعرع واخذ يفكر ويميز بين ذاته والاشياء التي حوله : (ص ٢٨)

« فلما ثبت في نفسه امثلة الاشياء بعد خفيها عن مشاهدته ، حدث له تنوع الى بعضها وكراهية الى بعض ، وكان في ذلك كله ينظر الى جميع الحيوان فيراها كاسية بالاوبار والاشعار والريش ، وكان يرى ما لها من سرعة العدو وقوة البطش ... ثم يرجع الى نفسه فيرى ما به من العري وعدم السلاح وضعف العدو وقلة البطش ... فكان يفكر في ذلك ولا يدري سببه ، وقارب سبعة اعوام واخذ يكتسي باوراق الشجر . »

حياة الانسان الطبيعية بمعزل من المجتمع

ودخل الحقب الثاني من عمره ، وانتهى منه الى الحقب الثالث ، فابدل ثوب الورق بريش الطير وجلده بأردية صنعها . وماتت الظبية فأسف عليها . ونظر الى جميع اعضائها فلم يرَ بشيء منها آفة . وتدرج من النظر فيها الى النظر في احوال اعضائه وحواسه ففهم وظائفها . ووقع في خاطره ان الآفة التي نزلت بالظبية هي في عضو غائب عن العيان . وهو مركز الحياة . فشقّ صدر الظبية على امل ان يكشف عليه ويداويه ، فاخفق مسعاه وفهم حقيقة الموت . على ان عمله هذا هداه الى معرفة جسم الحيوان وعناصره.

ودفن الظبية واخذ يكشف على انواع الحيوان والنبات ، ويدرس طبائعها. وانقدحت نار في اجمة ، فهاله منظرها ، ثم فهم منافعها . وخلا بها في حجر استحسنه للسكنى ، وما زال يمدها بالحشيش والحطب فظم قدرها وظنها من الجواهر السماوية . وتعلم الصيد والطبخ ومهد له اقتناصه الحيوانات السبيل الى التعمق في معرفة اصلها وطبائعها : من وحش ، وطير ، وسمك . وصنع آلات الصيد ، وتعلم الصناعة وميز بين روح الحيوان وجسده ، وهو على رأس ثلاثة اسابيع من نشأته وذلك احد وعشرون عاماً .

العقل المتفلسف ، اكتشاف المادة والصورة في الاشياء

ودخل في الحقب الرابع (ص ٤٤) فتصفح جميع الاجسام التي في عالم الكون والفساد من الحيوانات على اختلاف انواعها الى النبات ، والمعادن ، واصناف الحجارة والتراب ، والماء ، والبخار ، والجمد ، والثلج ، والبرد ، والدخان ، واللهيب ، والجمر . فرأى لها اوصافاً كثيرة: افعالاً مختلفة وحركات متفقة ، وهي في حكم الوحدة والتغاير معاً . وكان ينظر الى انواع الحيوان كلها في نفسها ويتأملها فيراها تتفق في انها تحس وتتغذى وتتحرك « بالارادة » الى اي جهة شاءت. ونظر الى وجوه الكثرة في الاشياء والى مبدأ الوحدة فيها فميز بين المادة والصورة (ص ٥٢)

فلما وقف بهذا النظر على ان حقيقة ذلك الشيء الذي كان تشوق ابداً الى معرفته ، هي كونه مركباً من معنى الجسمية ، ومعنى آخر زائد على الجسمية ، وأن معنى الجسمية مشترك له ولسائر الاجسام ، والمعنى الآخر المقترن به ينفرد به وحده ، هان عنده معنى الجسمية فاطرحه وتعلق بالمعنى الثاني وهو المعبّر عنه بالنفس (للبحث صلة)